

لواعج ومواجهات

رواء الجصاني

3/ يا ابن الفراتين

يعود الجواهري خريف عام 1968 إلى بلاده بعد "سبع سنوات عجاف" في معتريه بيراغ، ليستأنب عليه النهazon والمتطعون، تحت لافتة "تخلف" الشعر العمودي، و"شبوخة" أصحابه، و"تضوب" روافده... مع تلويح لا يحتاج لمزيد من الفطنة إلى أن الجواهري كان هو المقصود أولاً، وحتى أخيراً، في تلك المعركة "الثقافية"... بل وقد تشجع البعض من "النقاد" و"الشعراء" العراقيين والعرب، من "الجامعين خشار القول" لينتقلوا من الإيحاء إلى الإيحاء صراحة، في التحرش المباشر بالشاعر والوطني الرمز، محاولين التناول عليه... وأمام هذه المنازلة التي جاء توقيتها بالتزامن مع انعقاد المؤتمر الأول للأدباء العرب ومهرجان الشعر المرافق له، في بغداد والبصرة (نيسان/أبريل 1969)، اختار الجواهري "حلبة الشعر" ليخوض المعركة من خلالها، بشموخ وعنفوان، وليرد بدالية مطولة، مدافعاً ومهاجماً في آن واحد، وليجوب أكثر من مضمار، وبأكثر من "بيت قصيد":

يا ابن الفراتين قد أصغى لك البلادُ
زَعْمَماً بأنك فيه الصادحُ الغررُ
ما بين جنبيك نبع لا قرارَ له
من المطامح يستسقي ويرتفد
يا ابن الفراتين لا تحزن لنازلة
أغلى من النزلات الحزن والكمدُ
فما التأسى إذا لم ينف عنك أسى
ومما التجأ إن لم ينفع الجأد
ومما ضامته قـول لا شـفيع له
من الضمير ولا من ذممة سـندُ

• ثم تتوالى أهات الجواهري لتتصاعد مزدحمة بالعتاب، والفاسي أحياناً، على أصحاب وأحباء، مشيراً إلى غريبته المريرة عن بلاده، وصمت بعضهم عما تعرض إليه من نكران وإجحاف... كما جاءت كثرة من أبيات القصيد لتصك أسمع المسقين، ممن لم يعرفوا حجومهم الحقيقية:

لا تقترح جـ نس مـود وصرته
وخلها حرة تأتي بما تلبد
ولا شكاة أي شكوا السيف منجـرداً؟
لا يخلق السيف إلا وهـ ومنجـرد...
على الوجوه مشتت كذوبية عـرض
وقررت الجأت الجـوهـر النكد

• ويستمر الشاعر العظيم مخاطباً المؤتمرين، والمشاركين في جلساته، ومن بينهم بعض المتطاولين العراقيين والعرب، من "المطعمين سعير الحقد لحمهم" فزالهم منفرداً، صائلاً جائلاً ليصف ويوضح ويفتد، وليفصح ويضمّر، وعلى امتداد أبيات القصيدة المنة والسبعين، مستعرضاً قدراته الشعرية وإبداعه، ودون أن "تأسره" القافية أو "تقيده" الأوزان:

وصاحبٍ لبي لــــم أبخــــسُهُ موهبــــة
وإن مــــتتْ بعــــتْ بــــيننا بــــاباً بــــرد
نقــــى عــــن الشــــعر أشــــياخاً وأكهلــــة
يُزجــــى بــــذاك يراعــــاً حــــبــــرُه الحــــرد
كأنمــــا هــــو فــــي تــــصنيفهم حــــم
وقولــــه الفــــصل مــــيثاقٌ ومــــستند
ومــــا أــــراد ســــوى شــــيخ بــــمفــــرد
لكــــنّه خــــفافاً مــــنّه حــــين ينفــــرد
بــــينــــي وبــــينــــك أجــــبالٌ مــــحكــــة
علــــى ضــــمائرنا فــــي الحــــكم يُعتمــــد

• ... وبعد الأبيات السابقة ينتقل الجواهري من الخاص إلى العام، منوهاً للنتائج، ومحذراً من الغي والتطاول، وإلا فالتاريخ هو الفيصل الحاسم، وما أقدره على الحكم والمقاضاة كما آمن الشاعر على الأقل:

يــــا شــــاتميّ وفــــي كــــفي غلاصــــمهم
كموســــع اللــــيث شــــتماً وهــــو يُزدرّد
وعاضــــضيّ وفــــي أفــــواهم شــــلل
أرخبــــى الشــــفاه ، وفــــي أســــنانهم درّد
أتلطــــمــــون جــــبين الشــــمس أن قــــذبت
عيــــونكم فبــــها مــــن ضــــوئها رمــــد
أم تُفرغــــون مــــيــــاة البــــحر أن تــــضبت
حياضــــكم فهــــي تــــزرّ ، مــــوحــــلّ ، صــــرد
يــــا بــــن "الركائــــك" والأبــــام هازئــــة
بميتــــين علــــى مــــاســــتفرغوا جــــمــــدوا
مــــا ضــــرر مــــن آمنــــت دنــــيا بفكرتــــه
أن ضــــيف صــــفرٌ إلــــى أصفــــار مــــن جــــدوا

• ... ولكي تكتمل الصورة التي شاءها الشاعر الكبير، لم يدع الفرصة لتمر، دون أن يجدد التفاخر بتفرد عطائه، وبسنوات نضاله المديد، ومواقفه في التنوير، فقال - مثلما يزعم - قولة صدق "لا تستمن ولا تخشى، ولا تعد" ودون أية رهبة، خاصة وهو في بدايات عقده الثامن آنذاك: "فما يخاف، وما يرجو وقد دلفت سبعون مثل خيول السبق تطرد"، بحسب ما جاء في القصيدة العصماء ذاتها.